الحدود المتنازع عليها

بين الفلسفة والدين و العلم

الباحث: عبد الكريم صالح

باحث ومؤلف وتدريسي في حوزة النجف الاشرف

مدخل

تكثر الالتباسات في كثير من قضايا الفكر والمعرفة وتكون مطرح الآراء ومعترك التجاذبات قد تصل الى حد الصدام الثقافي، حتى تصل الحال الى الادعاء باحتكار المعرفة واختزالها بنوع واحد من انواع المعرفة، فتجد ان المعرفة العلمية التجريبية تسلب القيمة والاعتبار المعرفي من سائر انواع المعارف الاخرى، كما تجد على مدى قرون صراع المنهج العقلي مع غريمه التقليدي صاحب المنهج النقلي ومن ثم المنهج التجريبي، وكل واحد من هذه الثلاثة تجده في اغلب الاحيان يحاول اسقاط الاطراف الاخرى ويسحب البساط المعرفي من تحتها جملة وتفصيلا، ويصور لإصحابه ان سلال الحقيقة في بستانه فقط، وليس وراءه الا ارض جرداء قد يخيل للناظر ان فيها واحات رقراقة ولا يعلم انه مجرد سراب يتعب اللاهث وراءه من دون ان يبل صداه.

وهذا الاعتراك المعرفي وان كان له بعض المخرجات الايجابية بسبب ان كل واحد من هذه المجالات الثلاثة يبرز مشكلات حقيقية للأطراف الاخرى ويطرحها في الطريق، فيكون لزاما على كل طرف ان يزيح تلك المشكلات من طريقه ليكون الطريق سالكا امامه للوصول الى المعرفة ذات الاعتبار، ولكن المخرجات السلبية الحاصلة من هذا الاشتباك توجب الغموض والضبابية في كثير من قضايا المعرفة، مما يؤدي في المحصلة الى عدم الموثوقية في تلك القضايا المتنازع فيها بل قد يؤدي الى التشكيك في تلك المناهج واهتزاز موثوقيتها لدى الباحثين، فيسري الشك الى كل القضايا الاخرى الخارجة عن محل النزاع بسبب عدم موثوقية الادوات الى التي انتجتها، وهذه مشكلة قد تهز كيان المعرفة الانسانية برمتها، وتلقي بنا مستنقع مذهب الشك والسفسطة، او لا اقل انها تعطي سلاحا قويا بيد النسبية المعرفية، وتعضد موقفها.

وهذا في الواقع نتاج الحدود المتنازع عليها في مجال العلم والدين والفلسفة، وما لم يتم ترسيم تلك الحدود جيدا برضى تلك الاطراف فان النزاع يبقى قائما على ساق، تتجاذب كل الاطراف تلك المساحات لبسط نفوذها عليها، وليس من الهين او المتاح ترسيم تلك الحدود بنحو يرضي الجميع، خصوصا ان المسألة لا يمكن حسمها بزمن واحد، و ان تلك الاطراف ليس لها وكلاء مخولين ليتكلموا باسمها، كما هو معلوم قبل عصر النهضة كان الصراع قائما بين الغريمين التقليديين، الفلسفة والدين، يحاول كل منها احتكار الحقيقة، ويكون حارسا امينا عليها، يدافع

عنها بكل شراسة، حتى دخل في الميدان لاعب جديد، وهو العلم، لم يلبث قليلا حتى اكتسح مساحات واسعة وسلبها من ذينك الغريمين، ودخل في صراع اكثر شراسة وضراوة مع كلا الطرفين، وان ظهر في بادئ الامر انه حليف للفلسفة مناصرا للعقل، استعان بها في معركته ضد الدين وقاد صراعا شديدا معه في القارة الاوربية حتى اوشك ان يقضي عليه او كاد، وسلبه كل اراضيه، وجعله جليس دار القلب، ليس من حقه ان يتدخل في اي شأن من الشؤون العامة للناس، وكان من الضرورة للخاسر في هذه المعركة ان يخضع للمنتصر ويتنازل له عن كثير من مستحقاته، ويتماهى معه، عسى ان ينال منه الاعتراف ببعض ما بقي لديه.

ولما فرغ هذا اللاعب الجديد من الدين، ونفض يديه من تراب دفنه، حتى التفت الى حليفه السابق (الفلسفة) وتنكر لها واخذ يوجه لها طعناته في مقتل، استعان هذه المرة في معركته ببعض الاجنحة من ذلك الخصم العنيد التي انشقت عن ذلك المعسكر، واخذت تقلب له ظهر المجن، وتتنكر لمنهجيته وقضاياه وهذا الجناح الفلسفي المنشق هو الوضعية المنطقية التي بدأت اواخر القرن التاسع عشر، واسست حلقة فينا من الفلاسفة الالمان والانجليز في مطلع القرن العشرين، وكانت تعنى بفلسفة العلم الابستمولوجيا، وتسلب حق الفلسفة من ان تبدي رأيها بأي قضية بمعزل عن العلم، كما بشر أوكست كونت بأن العالم سيصل الى مرحلة من الفكر والثقافة بأنه سوف تنفي كل القضايا الدينية والفلسفية وسوف تبقى القضايا العلمية التي أثبتت بالحس والخبرة الحسية.

وهكذا اصحبت الفلسفة مجرد طريقة لا يحق لها تكوين قضايا تجريبية ولا رياضية ذات معنى، فهي اذن طريقة منطقية تحليلية لا تزج نفسها في مجالات العلوم، وليس لها قضايا مستقلة لا يتناولها العلم، لان كل قضية لا تقع تحت الحس والتجربة الحسية تكون خالية من المعنى، وهكذا دق اخر مسمار في نعش الفلسفة بما تمثله من ميتافيزيقيا.

قضايا الصراع

الفلسفة والدين

وان كانت الفلسفة تختص شأنها شأن الدين. بوضع اجابات على أسئلة نهائية معينة، كأصل الانسان ومصيره، وعلاقته بالكون الذي يعيش فيه، وطبيعة الله، وعلاقة الانسان بالله، وخلود النفس، وحرية الارادة، وعلاقة السلوك الانساني

بالسعادة الانسانية، ولا شك أن أشتراك الميدانين من حيث الموضوع في مثل هذه المشكلات الكبرى، يكفي في ذاته لكي يجعل الميدانين يتداخلان تداخلا جزئيا. الا ان جزءا كبيرا منهما مختلف أيضا.

هناك عدة فوارق بين الميدانين لا يسعنا ذكرها هنا نكتفي بالفارق الاهم وهو المنهج، فان الدين يقبل قضايا معينة على انها موضوعات للايمان على حين ان الفلسفة لا تقبل ذلك، فأن المفكر الديني يستخدم المنطق والعقل، ويحرز في ذلك نتائج رائعة، عند شرحه لتفاصيل هيكل التفكير الديني، غير أن المنطق والعقل يستخدمان هنا لاضافة أدلة عقلية الى ما يقبله هو مع سائر المؤمنين على أساس الايمان، أما الفيلسوف فهو يبذل كل جهد وراء العقل الى أي نتيجة يؤدي اليها.١

لذا نجد انه حينما ارتفع شأن الدين في الشرق واخذ يبني حضارة مزدهرة، في محيط يغط في نوم عميق، ويعيش في ظلام دامس، لها من المقومات ما يجعلها محط الانظار، ومطلب الطامح، وانفتحت هذه الحضارة على تراث الحضارات السابقة، ونتاجاتها، فما كان للفلسفة الا ان تكيف نفسها وتتماشى مع قضايا الدين الكبرى، وتصوغ اهم قضاياه في خارطة عقلية متماسكة منطقيا، متينة الاحكام، واضحة المعالم، ففي هذه الحضارة صاحبت الفلسفة الدين، وأخذت تعضده، خصوصا في قضايا الاعتقاد، واصبحت الفلسفة الدينية تستلهم قضاياها من الدين، واصبح للدين فلسفته الخاصة.

نعم اخلت الفلسفة الساحة للدين في قضايا التشريع، واقرت له بأن هذه المساحة له في مجملها، فارتسمت الحدود بينهما في اكثر المجالات، واخذ يتحرك كل واحد منهما في ارضه ويشيد بنائه المتين، ومن خلال هذه التجربة الشرقية بين الفلسفة والدين الاسلامي، اقدم المصلحون في الديانة المسيحة بدءا من القرن الثالث عشر الميلادي على يد توما الاكويني بتدعيم العقيدة المسيحية بدعائم الميتافيزيقيا، وان كان للفلسفة وجود قبل ذلك من القرن الخامس الميلادي من خلال اوغسطين، ولكن ليس بالمستوى اللاحق الذي برع فيه اللاهوتيون من الفلاسفة المدرسيين، بعد الترجمة لكبار فلاسفة العصر الاسلامي، فقد ارتبطت ترجمة المؤلفات العربية إلي اللغة اللاتينية باسم العالم اللاهوتي «ريمون» الذي كان رئيس أساقفة طليطلة من سنة ١١٣٠ إلي سنة ١١٥٠ ميلادية، و في طليطلة كان المسلمون يعيشون جنبا إلي جنب مع المسيحيين، و كان وجودهم في عاصمة الملك و مقر رئيس الأساقفة مما

١- هنتر ميد الفلسفة انواعها ومشكلاتها. ص٣٤

دفع جيرانهم إلي الاهتمام بالحياة العقلية الإسلامية. و في طليطلة أسس «ريمون» ديوانا للترجمة مهمته ترجمة أمهات الكتب العربية، فنقل الديوان بإشراف «جنديسالينوس»«المتوفي سنة ١١٥١ م» و من بعده «جيرار دي كريمونا» المتوفي سنة ١١٨٧ م، كثيرا من التوجيهات العربية لمؤلفات «أرسطو» و كثيرا من مؤلفات «الفارابي»، و«ابن سينا» و«ابن رشد».١

ونشط التيار العقلي في عصر النهضة وما بعدها بمصاحبة العلم، اخذ نجم الدين يأفل في القارة الاوربية، واخذ يتلقى الضربات تلو الضربات من الخصمين الفتيين، فآل امره الى الضعف، بدرجة لا يكاد معها يستطيع الدفاع عن نفسه، ونشأت هناك بعض التيارات الفلسفية التي تحاول ان تخضع الدين تحت سيطرتها، وتعيد قراءته من جديد قراءة نقدية، من خلال المذهب الفينومينولوجي الظاهراتي، او من خلال مدرسة التأويل الفلسفية الهرمينوطيقا، كل ذلك يمكن ادخاله تحت ما نشأ جديدا بأسم فلسفة الدين، فهي تضع كل قضايا الدين ومنظومته ومفاهيمه على طاولة الفحص والنقد. ومن ثم نهض مارد العلم من احضان الفلسفة الغربية، ليجعل الفلسفة في صفه لضرب الدين هناك.

الفلسفة العلم

ظن العلم والتجريبية المنطقية، انه دق مسماره في نعش الفلسفة، وانها دورها كمصدر من مصادر المعرفة البشرية وطوعها لتكون آلة تعبد له الطريق، ويحصرها ضمن زاوية ضيقة، في الميثودولوجي (Methodology) ، والابستمولوجي (Epistemology) وسحب بساط الاعتراف بها ضمن مجال العلم، واخرجها من حريمه، ولكن هل فعلا فعل ذلك؟ ونحج في مهمته وحربه مع الفلسفة، ام ان تلك دعوى مجانبة للصواب، ويبقى لها ارضها التي حرث فيها، وتنتج ثمارها المستقلة عن العلم؟ بل قد يدعى ان العلم لا تقوم له قائمة الا بالاتكاء على الفلسفة، ويضع قواعده على اسسها، حتى يكون بنيانه متينا، لنلقي نظرة سريعة على اهم مرتكزات العلم التي ينطلق منها، وهي مرتكزات فلسفية بحتة، ليس خاضعة لمعايير المعرفة العلمية، من الملاحظة والتكرار والاختبار التجريبي أو قابلية التفنيد.

١- دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، ج ٩ ، عثمان أمين

مرتكزات العلم

قانون العلية: لولا افتراض هذا القانون لما ثبت حجر على حجر، فان مضمونه يعني ان كل ظاهرة لها سبب، وان كل سبب ينتج ظاهرة معينة ولا ينتج غيرها، سواء كان على مستوى الطبيعة او على مستوى فعل الانسان، وحتى العلم تنتجه مقدمات معينة، فليس لنتيجة معينة تؤخذ من اي مقدمة كانت، لذا العلم يفترض في جميع استدلالاته سواء أكانت استقرائية ام استنباطية ان المقدمات علة للنتيجة، ولو لم تكن النتيجة معلولة للمقدمات لما صح استدلال في اي علم من العلوم.

وهذا القانون لا يمكن الاستدلال عليه علميا وتجريبيا، لان كل محاولة للاستدلال ستبتلي بالمصادرة المنطقية، بمعنى حتى يصح الاستدلال لابد ان تكون المقدمات علة للنتيجة وهذا يفترض مسبقا ان قانون العلية صحيح، فلا يمكن الاستدلال عليه، حتى من الناحية الفلسفية.

هناك قوانين تحكم الطبيعة: لماذا نفترض ان هناك قوانين تحكم الطبيعة؟ ولماذا يجب ان يكون الوضع بهذا الشكل؟ لماذا لا تكون الاحداث عشوائية وفوضوية؟ العلم التجريبي لا يجيب على ذلك بل يأخذ القضية مفروغ منها ويأخذ بالبحث والتنقيب عن تلك القوانين التي تحكم الطبيعة ليسخرها بخدمته. يقول الفيلسوف البريطاني الفرد نورث وايتهيد: لا يمكن لعلم حي وفعال ان يوجد مالم يكن هناك اقتناع غريزي شامل بوجود نظام للاشياء ووجود نظام للطبيعة على وجه الخصوص. ويضيف ان الايمان بهذا الافتراض مستوحى خصوصا من اصرار العصور الوسطى على منطقية وجود الله.١

القوانين الطبيعية دائمية: فرض عدم التغير لتلك القوانين هو فرض فلسفي وليس علمي، وهو ان تلك القوانين تعمل على وتيرة واحد فهي لا تختلف ولا تتخلف في كل زمان ومكان، لذا يرى علماء الكونيات ان القوانين التي في المجرات البعيدة هي نفس القوانين التي نعرفها عندنا والقوانين التي كانت في سحيق الزمان عند اول نشوء الكون هي نفسها الموجودة حاليا. وهذا مما لا يتسنى للعلم اثباته وهو خارج عن نطاق بحثه.

يمكن للعقل ان يكتشف الطبيعة: امكان ادراك المعرفة العلمية يحتاج الى تأسيس

١- ستيفن ماير توقيع في الخلية الدنا وادلة التصميم الذكي ص١٩٣

معرفي تضطلع به نظرية المعرفة التي هي احد ابواب الفلسفة، ولا يمكن للعلم ان يقول كلمته هنا ايضا. يقول لينكوس: مفهوم امكانية فهم الكون نفسه يفترض مسبقا وجود عقلانية قادرة على الوصول الى ذلك الفهم، والمؤكد أن الثقة في إمكانية اعتمادنا على العمليات العقلية البشرية وقدرتها على تزويدنا ببعض المعلومات عن العالم هي أساس اي نوع من الدراسة وليس دراسة العلم فحسب، وهذه القناعة أساسية جدا لكل أنواع التفكير حتى إننا لا يمكن أن نشك في صلاحيتها قبل أن نفترضها في المقام الاول لاننا لا بد أن نعتمد على عقولنا حتى نشك فيها اصلا، فهي المعتقد الاساسي الذي يبنى عليه كل بحث فكري.١

ويقول ستيفن ماير: اسهب عدد اخر من مؤرخي العلم بالحديث عن ملاحظة وايتهيد، حيث اصروا ان العلم الحديث مُستلهم تحديدا من الاقتناع بفكرة أن الكون نتج عن عقل مُفكر صمّمه بطريقة تجعله مفهوما، وصمّم العقل البشري ليتمكن من فهمه وكما يشير عالم الاجتماع ستيف فولر فإن العلم الغربي تأسس على فكرة الايمان بأن النظام الطبيعي نتج عن ذكاء مفرد ينحدر منه ذكائنا، اتاح هذا الافتراض التأسيسي المجال لبزوغ فكرة قابلية فهم الطبية وأنها صُمّمت بطريقة تتوافق مع قوانين قابلة للادراك يمكن ان يفهمها الناس عندما يخضعونها للفحص الدقيق، أو كما قال عالم الفلك يوهانس كيبلر: يقوم العلماء بوظيفة التفكير في أفكار الله من بعده. ٢

ويقول يوجين ويجنر الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء : ان الفوائد العظيمة التي تقدمها الرياضيات للعلوم الطبيعية لهي سر عميق، وليس له اي تفسير منطقي ولكنه ايماني.٣

بساطة الطبيعة: الغالبية العظمى من العلماء يعتقدون ان الكون الذي نعيش فيه قد بني بحسب مبادئ بسيطة، ورغم ان الظواهر الفيزيائية التي يرصدها العلماء كثيرا ما تكون بالغة التعقيد الا انهم يفترضون على نحو ثابت أن القوانين الاساسية للطبيعة ليست كذلك. وليس من الواضح وضوحا مباشرا أن الطبيعة هي حقا بسيطة مثلما يحب العلماء ان يعتقدوا، بل أن من الممكن حقا أن نجادل بأن هذه الفكرة هي نوع من الاحكام الفلسفية المسبقة، ومع ذلك فان فكرة البساطة ليس شيئا يمكن اثباته أو دحضه، انها مسلمة ميتافيزيقية.٤

١-جون لينكوس العلم ووجود الله ص١٠٤ ٢- توقيع في الخلية الدنا وادلة التصميم الذكي ص١٩٣

٣- ن م ص١٠٦ ٤- موريس حافة العلم ص١٩

ويشير موريس في كتابه حافة العلم الى تسلل الميتافيزيقا الى العلم فيقول: المفروض أن الفارق بين العلم والفلسفة هو أن الافكار العلمية قابلة للاختبار تجريبيا، بينما الافكار الفلسفية غير قابلة لذلك، على ان هذا المبدأ صار ينتهك الآن بوتيرة تتزايد ابدا، ومن الطريف أن نلاحظ أنه أثناء الجزء المبكر من القرن العشرين كان الفلاسفة يكدحون بشدة لجعل نظام المعرفة لديهم أشد صرامة، اما الان عند نهاية نفس القرن فان علماء الفيزياء الذين كان الفلاسفة يحاولون بكل جهد محاكاتهم، هم الذين يدخلون أفكارا لا تقبل الاختبار الى نظام معرفتهم، وأصبح هذا أمرا أكثر وقوعا.١

العلم وسيلة بحث لا فلسفة شاملة

كل تخصص من تخصصات العلم له مجاله البحثي، قد تنتظم النتائج في نسق واحد في ذلك المجال، وقد يكون بينها بعض المشتركات التي ترتكز عليها، من قوانين ونظريات مضافا الى المنهج الواحد الذي انتجها، كما في علم الفيزياء مثلا، فمسائل هذا العلم تنتظم من خلال المنهج الفيزيائي الذي يتناول كل مفردة من مفردات ذلك العلم، وتشترك كثير من تلك المفردات ببعض القوانين الفيزيائية العامة، ولكن ليس بالضرورة ان تشكل تلك المسائل والمفردات لوحة متكاملة فيزيائية، بحيث كل مفردة تأخذ موقعها من تلك اللوحة. وهكذا بالنسبة الى باقي العلوم التجريبية.

فهي لا تعطي رؤية كونية شاملة من البدء الى المنتهى، وليس ذلك من وظيفة العلم ولا من مهامه، وانما تناط تلك المهمة للفلسفة، فالانساق والمذاهب والمدارس الفلسفية هي التي تحاول ان ترسم مشهد متكامل عن الوجود، وهي التي تجيب عن اسئلة تقع خارج اختصاص العلم كما يقول رسل، حيث يستطرد قائلا: هل العالم ينقسم الى عقل ومادة؟ وان كان كذلك، فما هو العقل وما هي المادة؟ وهل العقل خاضع للمادة ام انه يتمتع بقوى مستقلة؟ هل في الكون اي وحدة او غرض؟ هل يتجه نحو غاية ما؟ هل هناك بالفعل قوانين طبيعية؟ ام اننا نؤمن بوجود قوانين

١- ن م ص٨٢

نظرا لميلنا الفطري للنظام؟ هل الانسان هو ما يبدوا لعالم الفلك كتلة صغيرة من الكربون غير النقي والماء يزحف ضعيفا على كوكب صغير ضئيل القيمة؟ ام انه كما يراه هاملت؟ هل هناك اسلوب حياة نبيل واخر دنيء ام ان كل اساليب الحياة باطلة؟ هذه الاسئلة ليس لها اجابات في المعمل.١

ويقول بيتر مداوار الحائز على جائزة نوبل: ان محدودية العلم تتضح في عجزه عن الاسئلة البدائية الطفولية التي تتعلق بالاشياء الاولى والاخيرة مثل كيف بدأ كل شيء؟ ما غرض وجودنا؟ ما مغزى الحياة؟٢

ويقول أوستن فارر: كل علم يتخير جانبا واحدا في العالم ويشرحه وكل ما يقع خارج هذا المجال يقع خارج نطاق ذلك العلم، وبما ان الله ليس جزءا من العالم وبالتالي ليس أحد جوانبه فكل ما يقال عنه مهما كانت صحته يستحيل أن ينتمي لاي علم.٣

اذن دعوى العلمية في الاجابة عن تلك الاسئلة هي دعوى عارية من الصحة، يحاول البعض ان يموه على مستمعيه ومتابعيه بان موقف العلم هو هذا، والحال انه موقف العالم وليس موقف العلم.

فالعلم الطبيعي يبحث عن قضايا معينة يريد ان ينتفع منها انتفاع مباشر سواء كان على المستوى الاقتصادي او الصحي او السياسي او العسكري، هذه اهم دوافع البحث العلمي والتكنلوجي، فهو لا يعني ببناء منظومة تصور له الواقع، وتحدد له رؤيته الكونية.

خاتمة

ليس من الغريب ان نرى الغرماء الثلاثة لا زالوا على قيد الحياة، ولم تفلح كل المعارك فيما بينهم التي قادها جيوش من العلماء والفلاسفة واللاهوتيون في القضاء على أي منها، نعم قد تضعف في بعض الوقت، حتى يظن الناظر انها قد قبرت، فتظهر من جديد اقوى مما كانت عليه، ويمكن ان يعزى السبب في ذلك الى حاجة

١- العلم ووجود الله جون لينوكس ص٧٣ ٢- ن م ص٧٢

٣- ن م ص٧٤

الانسان الى كل هذه الميادين الثلاثة، ولا يمكن الاستغناء عن أي واحد منها، وكل لاعب منها يوفر للانسان ما لا يوفره الاخر، فالفلسفة معنية بارضاء العقل، كما ان الدين معني بأرضاء القلب، والعلم يهتم برفاه البدن، والجوانب الثلاثة في الانسان هي التي تشكل انسانيته، وهو بحاجة الى اثرائها ورفدها حتى يحافظ على توازنه، وطغيان أي منها وتمدده على المساحات الاخرى موجب لاخلال بذلك التوازن، فدعوتنا لترسيم الحدود بين هذه المجالات، ليس من الترف الفكري او نافلة في القول، بل هي ضرورة ملحة ان اردنا ان تحافظ الانسانية على ذلك المثلث متساوي الاضلاع، فيتحقق لها التوازن.